فكري أباظة

محام نابه ، فى مَيْعة الشباب ، دائب الهمة ، لا يعرف غير الطريق بين بيته فى « القاهرة » ومكتبه فى « الزقازيق » . . . وإن بواكير نشاطه وعمله لتبشر بأن سيكون له فى عالم المحاماة شأن عظيم !

وما كان له وهو شاب متحمّس يتوقد ذكاء وألمعية ألا يتابع النهضة الوطنية فى تقلباتها السياسية يوما بعد يوم .

وبينما هو وراء مكتبه يوما يتصفّح إضبامة قضية من قضاياه ، إذا بنظراته تقع على إحدى الصحف السيارة ، فيقرأ فيها نبأ ارتحال المعتمد البريطانى حينئذ عن « مصر » . .

فوجد نفسه وقتا يسرح مفكرا فى هذا النبإ ، وما له من ذيول ولواحق ، فأخذتْ أنامله تجرى دون وعى منه على ورقة من أوراق مكتبه الخاصة بمذكرات الدفاع .

وانبرى يكتب فى حميّة نادرة ، وسرعان ما انسقت له سطور طوال . . .

وأخيرا رفع رأسه عن المكتب ، فرأى أن براعته قد نجحت رسالة غرامية إلى ذلك المتعمد الراحل ، يشيعه فيها بكلمة طريفة تتميز بجسارة نفس ، ومهارة عرض ، وبلاغة حجة ، وسلاسة تعبير . . . وهى فوق ذلك كله فكاهة الروح ، حلوة الدعابة ، لينة الملمس !

فدهش الكاتب مما كتب ، وساورته الحيرة ، فراح يسائل نفسه : أبقلمه حقا كتب هذه السطور ؟ وفيم فعل ؟ وما ذا ينتوى من وراء هذا الصنيع ؟

وانطلق يضحك ويغرب فى الضحك ، فما أسرع أن بدت له فتاة مكتبه الحسناء ، وعينها تلتمع حيوية وفطنة . . .

بيد أن الشاب استرسل فى قهقهته ، وقال يسدد فضول الفتاة المتسائلة :

إنى أضحك من عبث طفولة كان منى !

وتراجعت « السكرتيرة » إلى مستقرها ، وألقى المحامى الشاب بالورقة جانبا ، واستأنف درس قضاياه ، حتى فرغ منها ، فغادر المكتب كشأنه كل يوم ، لا يشغله شىء من أمر تلك الرسالة التى جرى بها قلمه منذ حين . . .

وأقبلت الفتاة على مكتب المحامى ، ترتب أضابيره ومحتوياته ،

فلم تكد تعثر على تلك الورقة حتى انكبت عليها تقرؤها ، وألفت نفسها تتصايح ، وهى تُرجّع الضحكات اللطاف !

فأسرع إليها خادم المكتب ، يتبين جليّة الأمر ، فعاجلته بقولها :

إنى أضحك من عبث طفولة حمقاء !

فارتدّ الخادم إلى الباب ، ووقفت الفتاة تردد النظر فى المقال ، فعنّت لها فكرة ساورتها حينا ، ثم ضربت جبهتها بكفّها ، وهمهمت :

لم لا يكون ذلك ؟ من لم يخاطر لم يفعل شيئا !

وتقضّت أيام تابع فيها المحامى الشابّ عمله ، كمألوف عادته ، يستغرق فكرَه ما بين يديه من رُكام القضايا والخصومات .

وفى صبيح يوم جعل يعبُر بعينه صحيفة « الأهرام » فراعه أن الرسالة التى كتبها إلى المعتمد البريطانىّ بأسلوب ساخر . تحتل من الصحيفة أبرز مكان !

ففغر فاه من دهشة وتعجب ، وأنكر ما ترى عينه ، وجعل يتشكك ويتثبت ، وانتهى به الأمر إلى يقين بأن الرسالة هى رسالته التى دبّجها قبل أيام . . . وها هوذا اسمه قد كُشف للملإ عن سرّه المستور !

وتلفّت يَمْنة ويَسْرة ، وقد أحسّ بأن عيون الناس تقتحمه وتتفحصه ، وتهم بأن تناقشه فى ذلك العبث الذى جرى به قلمه ... فرمى بالصحيفة ، وانطلق إلى داره هَرَبا ، وأزمع أن يحتبس فيها أياما متمارضا ، ليحتجب عن أعين الناس ، حتى عن أعين الأطباء !

إنه ليخشى أن تؤذى سمعه كلمات الهمز واللمز ، أو أن يتعقبه الشُّرطيون من رقباء الأمن وحماة النظام !

وبعد أن قضى فترة فى محبسه ، وخف عن كاهله ذلك الكابوس ، خرج إلى مكتبه حَذِرا يترقّب ، وقد كسا وجهه شحوب ... وما برح يفكر ويتساءل :

أى شيطان أبلغ « الأهرام » رسالته ؟

ودار بأسئلته بين أعوان مكتبه ، يتقصّى ويتعرف ، وهو ثائر مُختَنق ، فلم يهتد إلى جواب يشفى الغليل .

وما إن جلس إلى المكتب يرغب فى استئناف الدرس والإعداد لإضمامات القضايا ، حتى طالعته رِزْمة من رسائل وبرقيات مضى يفكّها ، فإذا هى تحفِل بتحيات وتهانىء على المقال الذى أطرف به القراء ، ذلك الذى سماه : « عبث أطفال » !

وانصرم الوقت ، وهو يعرِض هذه الرسائل ، تَزِيغ عيناه بين رُكامها ...

وأنهى إليه الخادم أن زوّارا ينتظرون إذنه ، فنهض إليهم ، وقد قرّ فى ذهنه أنهم من عملاء مكتبه ، وطلاب توكيله .

وما كاد يلقاهم محييا محتفيا ، حتى استبان له أنهم ، رسائل حية ، قَدِمتْ تزجى إليه جديدا من تهانىء وتحيات !

وترادفت عليه أيام ، وهو بين مصدّق ومكذّب لهذه الحال الطارئة التى غَشِيَتْه .

وبعد حين ألفى نفسه وقد استيقظت بين جنبيه تلك الرغبة الكمينة فى أن يدبّج سطورا من ذلك البيان الساحر ، على نمط رسالته إلى معتمد الإنجليز .

ويوما جلس يكتب مقاله الثانى ، وما كاد يفرغ منه ، حتى أقبلت عليه فتاة المكتب فى تردّد وإحجام ، وهى خافضة البصر ، تفرك إحدى يديها بالأخرى ، فرفع إليها هامته قائلا :

ما بكِ ؟

فقالت متلعثمة :

ضاق بالسرّ صدرى . . . إنى لمفضية به إليك ، وليكن حكمك ما تشاء .

فلمعت عيناه تطلعا وحيرة ، وسأل :

أىّ سرّ تعنين؟

فقالت فى لهجة استغفار وندم :

سرّ المقال . . . أنا التى بعثت به إلى « الأهرام » . . . ثق أن نيتى كانت بيضاء !

فأخذ الشابّ يعبث بالقلم بين أنامله ، وهو ينظر إليها بسّام الثغر ، ثم قال لها هادئ الصوت :

لا عليكِ !

ومدّ إليها يده بالمقال الجديد ، قائلا :

افعلى به ما فعلت بسابقه . . . إنى بك متيمّن مستبشر !

وسارت به الأيام ، تتوارد عليه الصحف ، حاملة له بين صفحاتها فيض قريحته فى هالة من الحفاوة والإعجاب .

فأحسّ الرضا عن نفسه ، وعن فتاة مكتبه الحسناء ، ولم يعد يرى فيما يثنى به الناس عليه إسرافاً أو مغالاة .

واطمأن أخيراً إلى أن الأقدار قد اصطفته لتُلْقِى به فى ذلك الحَشْد من أدباء الصحافة وحملة الأقلام . . .

وعلى مرّ الأيام تخلّق فى مكتب المحاماة مكتب آخر ، جعل ينمو ويتسع ، حاملا رسالة الصحفىّ وقلم الأديب !

وأصبح لذلك الشاب النابه حياتان ، تتقاسمان نشاطه ،

وتنافسان فى اجتذابه ، فنظر إليهما نظرة الزوج إلى ضرتين حسناوين ، ليس له إلى التخلى عن إحداهما سبيل .

ولم يملك إلا أن يقول لها مبتسماً :

إنى بين أيديكما . . . فاصنعا بى ماتريدان !

إن الله لأكرم من أن يدع « فكرى » للمحاماة وحدها . . .

بين ظهرانينا عشرات من « فكرى » المحامى ، ولكن ليس لنا من « فكرى » أديب الصحافة الفنان إلا رجل فرد !

أفليس من الظلم أن تأسره المحاماة ، فتحرمنا ذلك الأسلوب الطلى الذى جلاه صاحبه وأبدع فيه كل الإبداع ؟ !

وربما كان من الدقة أن نشير إلى أن هذا الأسلوب ظهرت لوامعه بادىء بدء فى مقالات كانت تحمل اسم « الغزالى أباظة » ولعل معالى الأستاذ « إبرهيم دسوقى أباظة باشا » أدرى الناس بصاحب ذلك الإمضاء !

فهذا الأسلوب وليد البيت الأباظى ، تعهده « فكرى » وخلص له ، وتفنن فيه حتى بلغ هذا المبلغ من الروعة والإمتاع .

مزية هذا الأسلوب هى المرونة والطواعية للتعبير عن دقائق الحياة الاجتماعية والعراك السياسى فى شتى النواحى والأوضاع .

تعبير كأنه حديث عذب ، يصغى إليه السامع ، فكأنما يترشف

من شراب منعش ، لا يفضى إلى سُكْر ، بل يُشيع فى النفس لطائف النشوة والمراح . . .

تعبير الطبيب البارع حين يؤلف بين العقاقير الناجعة والشراب الحلو ، فيخرج منها مزاجاً يجمع بين الفائدة وطِيبِ المَذَاق .

تعبير تتجلى فيه أشتات من المزايا :

عفة فى اللفظ ، فلا موضع لكلمة نابية ، وسخرية فى النقد لا يترك مِبْضَعُها جُرْحا يَدْمَى ، وجرأة فى الحق تبعثها الصراحة والغيرة ويقظة الضمير .

إن « فكرى » ليغضب أحيانا غضبة النَّمِر ، وقد يرفع كفه ليصفع بها الصفعة القاضية ، ولكن سرعان ماتحُول الصفعة فى يده مُزْحَة ودعابة تؤلم ولكنها لا تثير الحَفِيظة ولا تَهِيج الغيظ .

لسنا نتزيّد فى القول ، إذ نصف أسلوب « فكرى » بأنه « الأسلوب الدبلوماسى » . وإنه ليمثل فى الصحافة ذلك السفير اللبق الذى يحقق أغراض دولته ويرعى مصالحها ، دون أن ينتضى سيفاً أو يصوِّب مِدْفعاً . . . وإنما يبلغ أهدافه بأفانين من مهارة فى الحديث ، ولباقة فى تصريف الكلام !

ولا ريب أن أسلوب « فكرى » قد أثار فى أذهان جمهرة من كتاب الصحافة التطلع إلى أساليب جديدة من التعبير الشائق

الخلاب ، فإليه فضل السبق والإثارة فيما يتجلى فى الأسلوب الصحفى على وجه عام من طراوة ولباقة وتجديد فى الوصف والعرض والتعليق . . .

سَلِمَ « فكرى » من آفتين :

آفة المناصب الحكومية .

وآفة الخصومات الحزبية .

وقد وفّرت له سلامتُه من الآفة الأولى حريةً فى النظر والوزن والتقدير ، ووَفَّرَتْ له سلامته من الآفة الأخرى جسارة على مواجهة الزعماء جميعاً بما يؤمن به ، دون تقيّد أو مصانعة أو خشية مَلاَم .

واليوم وقد تسنَّم « فكرى » تلك المكانة بين حاشية صاحبة الجلالة الصحافة ، نراه لم يجحد ما كان من صنيع فتاة مكتبه يوم أفلحت فى التجسس عليه ، وجرؤت على أن تقوم بمهمتها خير قيام ، إذْ استطاعت أن تمهد طريقه الصحفىّ فى خطوته الأولى . فها هى ذى الآن بجانبه تشاركه فيما يعمل . . . ولفرط اعتزازه بها ألزمها أن تخفى وجهها الصبيح تحت قناع من أقنعة التنكّر ، فلا يعرف الناس منها إلا اسم : « الجاسوسة الحسناء » !

أنطون جميل

حينما أخذتُ القلم لأكتب كلمات أصوّر بها شخصية أديب الصحافة الأكبر « أنطون الجميّل » طالعني على الفور رسمان لرجلين من أعلام الأدب العالميّ ، هما : « الفريد دي موسيه » الفرنسيّ ؛ و « أوسكار وايلد » الإنجليزي .

فلبثت هنيهة أفكر .

أية مشابهة بين أديبنا العربيّ وهذين الأديبين الأوربيين ؟

يدرك المرء أحيانا ببصيرته أول وهلة حقائق من الحياة لم يكن ليدركها بإنعام النظر ، فإذا راح يمتحن ذلك الإدراك الفطريّ البديهيّ ، ويعرضه على موازين العقل وأقيسة المنطق ، تجلى له في الغالب صدق البصيرة وقدرتها على اكتناه سرائر الأشياء !

أول ما يروعك من صورة الأديبين الأوربيين ظاهرتان ، هما : الشاعرية ، والأناقة . . . تتجليان فيما يبدو عليهما من سمات وملامح ، وفيما يؤثران من شارة وزيّ .

فإذا ما عدلتَ ببصرك إلى صورة « أنطون الجميل » توضحت لك هاتان الظاهرتان غاية التوضّح .

وإنك إذ تساير مراحل حياته ، منذ عرفَتْه « مصر » قبل عشرات من السنين إلى هذا اليوم ، تجد هاتين الخلتين تطبعان حياته بطابعهما الأصيل ، وكلما تقدمت به مراحل الحياة ألفيتَ جذورهما تتأثّل ، وفروعهما تتسامق وتترعرع !

ولعلنا لو عرّفنا « أنطون الجميّل » فى مَعْلَمَةِ الأدب العربىّ بأنه : « أناقة وشاعرية » لكنا بذلك قد أجملنا له تعريفا يجمع بين الصدق والإبانة .

للرجل خصائص أخرى لها خطرها ، ولكن هاتين الخلتين أظهر ما فيه ، بل إنه يكاد يكون أكثر الناس اختصاصا بهما .

شاعرية « أنطون الجميّل » لا تتمثل فى صوغ القصيد ، فما أحسبه قد عنّى نفسه ببناء بيت ، ولكن له مع ذلك قصيدة فريدة ترِفُّ فيها الشاعرية أجمل رفيف ، تلك القصيدة هى حياته ! .

كانت براعة الاستهلال فى هذه القصيدة - يوم بزغ الرجل فى « مصر » - هى وَلُوعه بالشعراء ، يتصل بهم ، ويقبل على مجالسهم ، ويعقد بينه وبينهم أواصر الألفة والودّ .

فى هذا العهد كان لأستاذ الشعر « إسماعيل صبرى » نَدوة تمثّل مجمع الأدباء خير تمثيل ، فما أسرع أن ظفرت هذه الندوة « بأنطون الجميّل » ، وأصبح كوكباً لامعاً فى أفقها الكريم . . .

بين أرجاء هذه الندوة تنفّست شاعرية الرجل فى نشوة وارتياح ، ولكنها سمت إلى أن تعبر عن طموحها ، فتجلى ذلك التعبير فى إخراجه مجلة « الزهور » ، وحسبك من اسمها عنواناً على تلك الشاعرية التى يفيض بها وجدانه الرّهيف ، فالزهرة للشاعر مهوى نفسه ، ومَجْلَى أنسه ، ومَرَادُ إلهامه !

سنوات أربع كانت هى عمر مجلة « الزهور » ، وكذلك الزهر قصيرٌ عمرُهُ ! . . . ويومئذ لم تكن الصحف والمجلات إلا أضاميم أوراق سُوِّدت بأخلاط من منظوم ومنثور ، فتنضّرت مجلة « الزهور » تسترعى بطرافتها أنظار القارئين . . .

كانت وثبة جديدة فى صحافة الأدب : أناقة فى الطبع ، جِدّة فى الإخراج والتنسيق ، انتقاء للرسوم والصور ، حتى إن حجوم الحروف وأوضاعها لم يفتها من العناية نصيب . . . فإذا المقال يجتذبك بخِلابة منظره ، قبل أن يمتعك بجودة مخبره ، وإذا أنت مفتون بهذا التفنن فى تجلية الروائع العربية عصرية الروح على نمط رفيع . . .

تلاقت فى ميدان « الزهور » أقلام النابغين فى الأدب ، فأضحت

المجلة جامعة لأدباء العروبة تصل بينهم على تباعد المواطن والأصقاع .

على أن المجلة تميزت بطابع الشعر ، فتألقت فيها عيون القصائد ، وتناثرت روائع الدراسات للشعراء . . .

وإن ما عُنِيَ به صاحب المجلة من تجوّد فى الاختيار ، ودقة فى التمييز ، قد يسّر له — فيما بعد — أن يقتطف من شعر « الزهور » طاقة عطرة سماها « مختارات الزهور » هى فى الحق أول مجموعة شاملة لأنماط الشعر العربىّ فى بواكير نهوضه الحديث ، حاوية لضرب من التعريف بالشعراء فى أسلوب وصفىّ جديد .

قرأنا فى هذه المجموعة « لإسماعيل صبرى » و « شوقى » و « حافظ » و « محرم » ومن إليهم . وإلى جانبهم قرأنا « لخليل مطران » و « بشارة الخورى » و « عمون » و « الملاط » وكثير غيرهم ، فاجتلينا صفحات مشرقة ، وألواحاً فنية ، هى نخبة تفصح عن ذوق مصفّى وتمييز دقيق .

لا مرية أن « لأنطون الجميّل » موهبة أصيلة فى تذوّق الجمال وصدق الحكم على الجيد من آثار الفن . . .

وإنه ليشبه فى هذه الموهبة أولئك الخبراء الفنيين الذين أُوتوا مواهب عجيبة من دقة الحس ورهافة الذوق وإصابة الرأى ،

لا يعنيهم تذوق الأشياء ، والحكم على مقدار جودتها . . . فتراهم في الشراب وفي التبغ مثلا أئمة حكاماً ، تلجأ إليهم المصانع مسترشدة بما يصدرون من أحكام فيما يتذوقون من خَلِيطِ لفافة أو مِزَاجِ شراب !

ليس « أنطون الجميّل » إلا واحداً من هؤلاء الذوّاقين الحكام الذين سخت عليهم الطبيعة بموهبة التخيّر الصائب ، والتقدير الصحيح ..

الشاعرية والأناقة تلازمان « أنطون الجميّل » في ملبسه ، وفي حديثه ، وفيما يجري به قلمه . . .

مقاله في أي موضوع يطرقه قصيدة أنيقة خلاّبة الرُّواء ، ينتقي ألفاظها انتقاء البستانيّ للناضر من الزهر ، وينسّقُ جملها تنسيق فنان فيّاض العاطفة بحبّ الجمال .

ومهما يكن من دقة الموضوع الذي يتناوله ، ومبلغ جِدّه وخطره ، فإنك تحسّ شاعرية المعاني والأفكار تَقْطُر رقة أو تَتَلَظّى حَمِيّة ، خالصةً أبدا من وُعورة أو جفاء ، وإنك تراه يصبّ آراءه في قِفَرٍ أدْنَى إلى أبيات القصيد .

فإن مددت عينك إلى مؤلفات « أنطون الجميّل » وجدت الرجل كما هو ، لم يتعدّ طبعه الأصيل ، دراسات للشعراء ، من مثل

« شوقى » و « إسماعيل صبرى » و « ولى الدين يكن » ، هو فيها شاعر أنيق يشدو ويتغنى ويوقظ فطنتك لتتعرف مواطن الجمال .

ومرة أراد أن يقتحم ميدان الحياة العملية فى تأليفه ، بعيداً عن آفاق الخيال ، فانتخب مؤلفاً أجنبياً نقله إلى العربية ، فإذا الشاعرية الغلابة فى طبع « أنطون الجميّل » تأسره فى هذا الاختيار ، وإذا الكتاب هو « الفتاة والبيت » . . .

صفحات تثير فى النفس حبّ الجمال ، وتطبعها على الأناقة ، وتربى فيها ملكة الذوق السليم . . . فكأنه بهذا الكتاب يعمل على نشر رسالة الشاعر الأنيق !

فى هذا الكتاب روائع من جديد الألفاظ ، ورشيق الفِقَر ، فأنت إذ تمضى فى قراءته كأنك تساير جدولا رقراقاً توَشّيه الرياحين . . .

من الظلم أن نقصر الحديث عن « أنطون الجميّل » على شاعريته الأنيقة ، فثمة شِيمَة لها أثرها البارز فى حياته ، تلك هى المرونة والطواعية . . . ولكن أليست هذه الشيمة إحدى « منتجات » الشاعرية والأناقة ؟

تمتاز حياة الرجل بتلك المرونة التى كانت معوانا له على الفوز والتبريز . . . ولعل مرونته العجيبة هى التى أعانته على أن يظل رهين

الوظيفة الحكومية أكثر من خمسة عشر عاما دون أن تصبّه فى قالبها المعروف . . . ويخيل إلىّ أن هذه الوظيفة كانت كلما همت أن ترفع يدها بخاتمها تريد أن تَهْوِىَ إليه لتَطْبَعه لم يلبث أن ينحرف عنها ويَزِيغ، تؤازره تلك المرونة التى بفضلها يتسنّى له أن يكون على وَفْق ما يريد .

خرج « أنطون الجميل » من الوظيفة لم يلحقه منها تَبِعات ، خرج محتفظاً بشخصيته ، فإذا هو كما هو ذلك الشاعر الأنيق اللبق ، ذو النفس الحرّة ، والرأى الصريح ، والأفق الرحيب .

ولما تسنم مكانه من « الأهرام » تجلت فيه شيمة المرونة فى أسمى صورها ، إذ صادفت فى تلك البيئة مجالها الزاخر .

خمسة عشر عاما أخرى ، مرت به فى هذا العمل الصحفىّ ، وهو يقف دائما موقف المحايد البصير ، يصرف المآزق فى لباقة وحنكة ، ويجنب حياده الدقيق طوارئ الأحداث وشوائب الأهواء .

ليس حياد الرجل فراراً من جهاد فى سبيل الخدمة العامة ، يُغْرِيه به فقدان المبالاة ، وإنما حياده ترفع حين يجب الترفع عن الخوض فى معارك حزبية ليست وثيقة الأعراق بالصالح العام ،

وأحياناً يتمثل هذا الحياد فى إفساحه المجال للآراء المتنازعة فى حرية وطلاقة ، رغبة فى التنوير والتبصير .

إذا التطمت خصومات الزعماء والساسة ، وتدسست نزعات النفوس مقنعة بلبوس الصالح العام ، ألفيت « أنطون الجميّل » يطرق إطراقة الكريم ، ويغضى إغضاءة من يبغى ستر هذه المشاحنات وتقريب شقة الخلاف .

فإن جدّ الجدّ ، وكان الصالح العام سيّد الموقف ، رأيت الليث يلبعث من عرينه ، وسمعته يطلق زئيره ، جاهرا بالرأى فى غيرة وإخلاص ، دون تجريح أو تسفيه أو تهوّر . . .

واحتواه مجلس الشيوخ ، فكان موقفه فيه مثيل موقفه فى « الأهرام » : أذن تتصامم حين تتهاتر منافسات الأحزاب والأشخاص ، فإن أُخذت عليه المسالك ، وضاق بالصمت ، وألفى نفسه فى المعمعة دون اختيار ، أنجده من حضور الذهن وسرعة الخاطر مدد ، فتراه ينسلّ من المأزق فى تحيّل ولباقة ، وله فى هذا الباب طرائف تؤثر وتروى .

ما كان ، لأنطون الجميّل ، أن يتملك ناصية الحياد النبيل ، وأن يصبر عليه ، لو لم تجتمع له خلال من رحابة الصدر ، وكرم النفس ، والزهد فى صغائر الشهوات التى تحفز صاحبها إلى الاستطالة والحقد والجحود . . .

وليس بدْعا أن يكون « أنطون الجميّل » هو « الصديق المشترك الأعظم » لسائر الساسة والقادة وأهل الرأى ، فإن فيه أكرم خلة يلتمسها الصديق فى الصديق ، تلك هى خلة الوفاء . . . وطالما آنَسْنَا مظاهر هذه الخلة فى مناسبات كثيرة يتجلى بها « الأهرام » .

وإن وفاء « أنطون الجميّل » ليسبغ ظله على الأحداث الماضية ، والذكريات العزيزة ، فهى تهزّ قلبه ، وتجد من أريحيته تلبية واستجابة . . .

شخصية « أنطون الجميّل » لا غنى عنها فى الميدان السياسىّ ، وموقف « الأهرام » لا بدّ منه فى الميدان الصحفىّ ، ولكننا لا ننتظر أن تكون شخصياتنا السياسية قاطبة على غِرار شخصية ذلك المحايد النبيل ، وليس بجائز أن تصير صحفنا كلها على نحو تلك الصحيفة الناجية من شُوَاظ المنافسات والخصومات ، فهذا وذلك لا يوائم منطق الحياة وطبيعة البشر . . . « ولولا دفعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ! .

بيد أن « الأهرام » ، وقائدها الأمين ، كلاهما عنصر جوهرّى ضرورىّ للسياسة وللصحافة ، حتى لا يكون الميدان كله نُهْبةً للتطاحن والعِراك !

الشيخ "أبو العيون"

سمعتُ بالشيخ «أبي العيون» قبل أن أقرأ له، وقرأت له قبل أن أراه، فتمثل لي شُرْطياً أَقْتَمَ عَبُوساً ممسكاً بهراوة ضخمة، يطارد بها الرذائل ويطهّر منها الأرض، في قساوة وجراءة واقتحام ... ولذلك كنت أستشعر له رهبة يخالطها توقير وإجلال.

وظَلِلْتُ أخشى أن تهيّئ لي المصادفات فرصة لقائه أو التحدّث إليه، حتى لا أضيق بما يضيق به جليس المتزمتين الذين لا همّ لهم إلا الإلحاح على الجلساء بالوعظ والإرشاد !

ولكن حدث بعد ذلك أن وصلت بيني وبين الرجل أسباب التعارُف، فراعني منه أول وهلة: وداعة في الشمائل، ودماثة في الخلق وموفور من الكياسة والمرونة.

وتتابع لقائي إياه، فتطاير من مخيّلتي شبح ذلك الشرطيّ الأقتم العَبُوس ذي الهراوة الضخمة، وحل محله ذلك الشيخ

« الجنتلمان » الذى أُقْحِم طرفا ورقة حاشية ، فعجبت لتلك المفارقة البالغة بين شخصية « أبى العيون » جليسا ومتحدثا ، وبين دعوته كاتبا وصوته فى المكافحة والصِّيال .

وكدت أنكر عينى وسائر حواسى ، واستهوانى الأمر ، فعمدت إلى استجلاء خوافيه ، فانكشف لى السرّ المكنون ، ووضح لى أن إهاب الشيخ « أبى العيون » تنطوى فيه شخصيتان تكاد كل منهما تستقل بنفسها تمام الاستقلال .

عرفت أن الشرطىّ الأقتم العبوس ذا المراوة الضخمة يؤدى عمله صادرا عن عقيدة وطيدة وعاطفة متضرّمة ، فلا تصنُّع ثَمَّة ولا دِهان !

ولكنى عرفت كذلك أن « الجنتلمان » الأنيس إنما يستمدّ أنسه وعذوبة شيمته من طوية نقية وشعور رَهيف ، وذوق حَضَرِىّ رفيع .

وإن هاتين الشخصيتين لتسيران معا جنبا إلى جنب ، وربما طغتْ شخصية « الجنتلمان » على شخصية الشرطىّ ، فأنت تقرأ مقالات الشيخ العنيفة ، فتستشف تحت سطورها لطفا وحنانا فى التعبير والتصوير ، لا تقتحم عينك كلمة عوراء ، أو جملة حُوشِيَّة ، أو تعبيرا تتراءى فيه آثار الظُّفْر والناب !

نجم الشيخ « أبو العيون » فى بيت دين وتقوى ، يسوده التحفظ والورع والأوضاع المأثورة فى العادات والأخلاق ... بيت ارتدى بعض كبرائه جلباب الولاية ، وشاعت عنهم ضروب من الكرامات ، فاعتقدهم الناس ، وأقسموا بهم غير حانثين .

ومن ثمّ استقرت فى نفس الشيخ منذ نعومة أظفاره هذه النزعة الغلابة فى الذبّ عن محارم الدين وحياطة شعائره .

واستقبل « الأزهر » ذلك الفتى المتديّن ، فاغتذت تلك النزعة بغذاء آتاها النموّ والزكاء .

وتنقل بعد ذلك فى وظائف التعليم ، تارة فى المدارس ، وتارة فى « الأزهر » ، حتى أدّى به المطاف إلى « الإسكندرية » شيخا لعلمائها ... ثم استردّه « الأزهر » ثانية ليتولى فيه منصبا من عليا مناصبه .

وما برح فى كل تلك المراحل يتنفس فى أجواء دينية محافظة ، تُغذّيها أسباب التزمت بالورع والتقوى .

ولكن — وفى « لكن » هذه سر الأسرار — حينما كان شيخنا رَطْب العود ، يرتشف من علوم « الأزهر » العربية ، أحسّ ميلا فطريا إلى الأدب وما إليه من منظوم ومنثور ، وطرائف وأسمار ، وألفى نفسه يمنح وقته الأطول للمطالعات الأدبية

فى دواوين الشعر وأسفار البيان ، فصَفَا ذوقُه الفنىّ ، وشاعت الرقة فى شمائله ، وتجلت له مواهب حافلة ، فإذا قلمه يجرى على الصحائف بفاخر الكلام ، ولقيتْ مقالاته إقبالا من القراء ، وتحيَّة من النقاد ، لما آنسوه فيها من سلاسة أسلوب ، وحلاوة لفظ ، ونصاعة فكر .

فانتضى قلمه يواصل التدبيج ، وأصبح فى عداد الموسومين بالأدب من الكتاب ، أولئك الذين يحسنون الإبانة ، كما يحسنون تذوُّق البيان . . .

وشبَّ شبابُه مقبلا على مجالس الأدباء وأندية الشعراء ، إذا سمع بأديب أو شاعر هُرِع إليه ، يتصل به ، ويُساقِيه الودّ . . .

وانفسح له مجال المطالعة والكتابة ، فأحس كما يحس كل أديب صادق الموهبة ، بنزعة إلى الحرية والتنفّس فى آفاق رحاب . . .

وهنا تجلت شخصيته الثانية ، وتم له تكوينها .

ومن ثَم نَشِبَ ذلك الصراع بين نزعتين : نزعة التحفظ ، ونزعة التحرّر ، أو — على الأصح — قام العراك بين عاطفتين : عاطفة الشيخ المتديّن ، وعاطفة الأديب الفنّان !

وكانت الوثبة الوطنية . . . فاتخذت من « الأزهر » مرتعها الخصيب ، وما كان للأزهرىّ البارّ سليل الشيوخ البررة أن يحجم

عن الضرب فى الميدان ، فألفيناه سبّاقا إلى الاقتحام ، وما لبث أن كان زعيما بين أقطاب الحركة ، ينفخ فى روحها بقلمه وصوته وسعيه ، مُرخِّصاً فى سبيلها كل مجهود ، واقفا بجانب الطليعة من القـــادة ، أمثال الشيخين « الزنكلونى » و « القاياتى » والقمص « سرجيوس » !

وفى هذا الجهاد الوطنى انفسح أمام الشيخ « أبى العيون » مجال العمل ، فخرج من تلك الدائرة الضيقة : دائرة التعليم والتدريس إلى دائرة فسيحة صاخبة قوية الصلات بالمجتمع المصرىّ وطوائف الناس فيه .

وما أسرع أن ظهرت للشيخ مواهب من المرونة والكياسة ، وحسن تصريف الأمور ، والتوفيق بين وجهات النظر فى مواقف حرجة ، ومآزق تزِلُّ فيها الأقدام . . .

خاض الشيخ هذه المعارك فى ميدان الجهاد الوطنى ، فكانت خير متنفَّس له عما يعتلج بين جنبيه من أحاسيس ومشاعر مكظومة مكبوتة تضيق بها بيئة التحفظ ، ولا تتسع لها حلقة الدرس . . .

وأبلى فى عهد الثورة أحسن البلاء ، ولكن ماهى إلا أعوام ، حتى ألفى تلك الثورة التى كانت شعلة واحدة قد تفرقت شِيَعاً

وأحزابا ، فأحس مرارة الخيبة ؛ ولكنه استمسك بموقفه ، وصان مبدأه عن التنقل بين هؤلاء وهؤلاء .

ولم يكن بدٌّ من أن يبحث الشيخ عن مُتَنَفَّسٍ لتلك المشاعر المحتدمة التي تأبى إلا الانبعاث .

ويومًا قرأ في إحدى الصحف نبأ قسّيس في بلد أجنبيّ يرفع صوته مستنكرا قيام البغاء .

قسيس يناهض البغاء في بلد أوربيّ ؟!

وتلفت الشيخ حوله ، وهو في بلد إسلاميّ صميم ، يتساءل :

أَثَمَّةَ شيخ يماثل هذا القسّيس في دعوته الصالحة ؟

وبلغ منه العجب كل مبلغ ... كيف فات أهلَ الرأى ورجالَ الدين وولاةَ الأمور أن « مصر » المسلمة شعبا وحكومة ترخّص رسميا بمزاولة البغاء ، على حين أن الإسلام يستنكر الزنا ، ويَحُدُّ له أقسى الحُدود ؟

واهتز في مجلسه اهتزازة عنيفة ، وأحسّ من قرارة نفسه صوتا يعلو مُهيبا به أن يَهُبَّ ، مجاهدا في سبيل الفضيلة .

أليس هو سليل الأولياء الصلحاء ممن يقسم الناس بهم في غير حِنْث ؟

أَوَليس هو لذلك أحق من غيره برفع راية الحرب على البغاء ؟

إنه يتقد حمية ويقظة ، وإنه لقادر على أن يثير بقلبه رواقد الهمم ، ويبعث خيرة الضمائر .

وتمثل له فى هذه اللحظة ما اضطلع به من جهد فى الثورة الوطنية ، إذ كان فيها لسانَ صدق ، وداعيةَ حق .

كيف لا يستأنف جهاده فى هذا الميدان الدينى ؟

إن الخُلُق القويم والفضيلة الكاملة دِعامُ الأمم ، فلا قيامة لأمة تسرى فى كيانها الخلق جراثيم الرذيلة .

وجلس يكتب مقاله فى البغاء ، وأخذ يفكر فى عناصر موضوعه ، وراعه أنه لا يعلم من تفاصيله ما فيه غَناء . . . ولكنه ألفىَ القلم يمضى وثّابا على القرطاس ، وإذا هو مهتاج النفس ، جيّاش العاطفة ، لا تُعْسِيه المعانى والأفكار .

ولما أتم المقال ، جلس يقرؤه لنفسه ، فعَجِب مما سطّر . . إنه حملة شعواء على البِغاء ، وإنه ليعالج الموضوع بوحى من العاطفة والعقيدة أكثر مما يعالجه بأقيسة العقل والمنطق . .

لَمْ يكن فى هذا المقال إلا شاعرا مغرقا فى الشاعرية !

وأرسل مقاله إلى « الأهرام » ، ووقف يحاور نفسه مبتسما :

أتلقىَ هذه الفورة العاطفية أذنا صاغية ؟ أم تذهب صيحة فى واد ؟

واطمأنت نفسه أخيرا بأنه مهما يكن من أمر المقالة وما يكون من أثرها ، فقد أدّى بها واجبا محتوما ، ووضع بها عن ضميره عبئا ثقيلا !

وتنفس أنفاس هدوء وارتياح .

كانت « مصر » يومئذ حديثة عهد بإعلان الاستقلال ، وقيام الدستور وبدء الحياة النيابية . . . كانت كالسجين الذى أفلت من محبسه ، وحطم أغلاله ، وانطلق فى أجواء حرية وتطلع ، تتضرم بين جنبيه رغبات وآمال ، وتتمثل لعينيه أخيلة المستقبل الجديد ، وما يكون فيه من إنشاء وتعمير . . .

كانت « مصر » آنئذ يتأجج فيها النشاط ، ويستبدّ بها التّهيّم إلى الإصلاح والتجديد ! فلم يكن يفوتها أية دعوة أو نداء فيه صالح الوطن ونفع الأمة ، ولا سيما ما كان من هذه الدعوات والهتافات يهدف إلى تركيز القومية ، وإبراز الشخصية واضحة مستقلة خالصة من الشوائب . . .

فما إن سرت فى الجمهور مقالة الشيخ ، حتى أَذِنَ لها ، وتأثر بها ، وتحمّس لفكرتها . . إنها صيحة يشنّها الشيخ على الانحلال الخلقىّ الذى هو بلا ريب من مخلفات عهد الخضوع والخنوع . . . فكيف ترضى الأمة الحرة لنفسها أن يلحق بأذيالها هذا الوَضَر ؟!

انهالت الرسائل على «الأهرام» تأييداً للفكرة ، أو بحثاً فيها ، وتعليقاً عليها . . . وشعرت «الأهرام» بأن قراءها يتقاضونها المزيد فى هذا الموضوع ، ففسحت صدرها للكتاب ، ورغبت إلى الشيخ فى أن يتابع صيحته ، وأن يكون على مَرْقَبَةٍ من معقباتها بين الباحثين والنقاد .

وتذوّق الشيخ لذة الظفر بأن صيحته لم تذهب بَدَداً ، وشمّر للأمر ، وأعدّ العدّة لمواصلة البحث والدرس على أساس من حقائق العلم وظواهر الاجتماع . . .

فانبرى يتعمق فى الموضوع ، ويتعرف جوانبه ، ويسأل أهل الذكر ، ويَسْتَكْنِه أثر البغاء فى الصحة والاقتصاد وشتى النواحى النفسية والخلقية ، وكان كلما استوفى بحثه فى إحدى النّقاط دبّج مقاله فيه ، وانتقل إلى البحث فى نقطة أخرى ، والجمهور الظامىء ينهلُ من ذلك المَعين ، لا يَرْوَى له غليل !

مازال الشيخ يواصل حملاتهِ ، حتى اجتذب إلى موضوعه آراء الخاصة وأهواء الناس ، فانتقل الموضوع من طور إلى طور ، وأصبح التفكير فى تنفيذه أقرب من المناقشة فيه ، وأخذ الشيخ على عاتقه مهمة الاتجاه العمليّ إلى إلغاء البغاء ، فمضى يطرق أبواب الحكام ، مثيراً غَضْبَتَهم للفضيلة ، مستحثّاً إياهم على أن يقضوا على مذابح الأعراض !

واطمأن الشيخ أخيراً بأن إلغاء البغاء أضحى مشروعاً يأخذ دوره الحكومىّ فى التحقيق شيئاً بعد شىء . . . فأحس بأن واجبه نحو هذا الموضوع قد قارب التمام ، فعليه أن يتجه وجهة أخرى ليستأنف الجهاد فى ميدان جديد ، ذَوْداً عن حوض الفضيلة ، وإعلاء لكلمة الدين .

إن هذه النفس الثائرة لم تَخْبُ جذوتها ، فهى لا تفتأ تتساءل :

هل من سبيل إلى مزيد من وَقود ؟

وَلِىَ الشيخ منصِبه فى « الإسكندرية » كبيراً لعلمائها ، ولعل قدميه قد مضتا به إلى الشاطىء بعد أن أدى فريضة الصبح يستروح نسيم البُكُور ، أو لعله خرج فى أحد الأصائل يتنزه بعد يوم عامر بألوان الشواغل والأعمال ، فما راعه إلا أن يرى ما يثير ثائرة الحليم ، ويهيج غيرة الشرقىّ الصميم !

لقد رأى النساء والرجال أخلاطاً أشباهَ عُراة ، لم يستروا من أجسادهم إلا أقلها ، فكأنما اخرجوا إلى الأرض ، كآدم وحواء ، إذ خرجا يَخْصِفَانِ عليهما من ورق الجنة !

تذمّر الشيخ بادىء بدء وتعوّذ ، وانبرى يناجى نفسه :

أين الحياء ، وأين الصون ، وأين العفة ؟ !

واحتشدت بين جنبيه جموع التقاليد تهيب به أن ينتهى عن هذا المنكر الذى لاصبر عليه لغيور !

ولكن أنسام البحر المنعشة تخطّرت إليه تحاول أن تُسكن من رَوْعِه، وتهدىء من ثائرته ... تخطرت إليه تحمل بين تضاعيفها أهازيج المرح وهتافات الشباب ويقظة الحياة... فجعل يجيل الطرف هنا وهنالك، فوقعت عينه فى رحاب الشاطىء على ذلك اللوح الفنّى المشرق من الوسامة والفتون !

تلك هى الدنيا ضاحكةً من حوله ... وهذه هى الطبيعة متبرجةً مرحة كأنما تَشْرَكُ الناس فيما هم فيه من متعة وائتناس... وذلك هو الجمال يُفيض على الكون كله الخلابة والسحر!

وأحس شيطان الأديب الفنان بين جنبيه ينفُض النوم عن جفنيه...

وألفى نفسه يهجس :

ربنا ما خلقتَ هذا باطلا سبحانك !... للاستمتاع خلقْتَ الجمال، وللفن وهبتَ الحرية والانطلاق!

وإذا لسانُه يترنّم بِنُتَفٍ من الشعر فى التعبّد بالجمال، والتغنى بالحُسْن.

بيد أنه ما عتّمَ أن أحس مارد التحفظ يشرئب من أعماق

نفسه ، ويطلق زئيره المُدَوّى . . . وسرعان ما اشتبك شيطان الفن ومارد التحفظ ، ودارت بينهما المعركة حامية الوَطيس ، فاهتز جسمان الشيخ هزة عنيفة ، ففزع إلى داره نجاةً بنفسه من حرّ هذا العراك ، ودخل الدار تنتظمه قُشَعْرِيرة ، ولسان حاله يهتف بأهله :

أدركوني فإني محموم !

ثاب الشيخ إلى هدوئه ، فعجب من نفسه : كيف بقي ساعة أسيراً لتلك الهواجس والنزعات ؟ إنها حقاً خُدْعَة شيطان رجيم !

وسرت في جسمه رويداً روح الغيرة على الفضيلة ، فَصَيح بملء فيه :

لا يكون لهذه الخزعبلات بقاء !

وما هي إلا أن انتفض الشيخ ناهضاً ، وتخيّر أصلب هراواته ، وشمّر عن ساعد الضَّرْب ، ومضى مهرولاً إلى الشاطىء شاهراً سلاحه العتيّ في وجوه الغِيدِ الأماليدِ من شبيهات حوّاء !

لم تسكن صيحات الشيخ إلا ثورة من نفسه على نفسه ، وإلا حماية من نفسه لنفسه ، فهو ينادي قائلا :

الفضيلة في خطر !

وما هو فى الواقع إلا زاجرٌ نزعةَ الفن والانطلاق فى نفسه، خشية أن تعدو على حصنِ الفضيلة بين حناياه !

لم تكن هذه المعركة التى أجّج الشيخ لظاها على شاطىء المراة إلا رغبة النفس فى أن تثبت أجلى إثبات أن الشيخ هو هو ، فرْع تلك الأعراق الكرائم من الأبرار الصُلحاء أولى الكرامات!

وكلما أحسّ الشيخ وَهْناً يَتسَرَّبُ إليه من وَليجَةِ نفسه الفنانة ، رفع الصوت جهرةً يستعصم به من ذلك الوهن، ويستمسك إزاء تلك النزوات . . . !

اندفع الشيخ يُجْرِى قلمه فى أنهار الصحف ، تنديداً بتلك المخازى التى تَحْشُر بها شواطىء المصايف ، مستنهضاً العزائم والهمم لمكافحة العُرْى ، حتى اقترن اسمه بالشاطىء ، فأصبح عدوّه الأول، ولكنه العدوّ الشريف الظريف !

لا يفوت الشيخ أن الحياة تتطور ، وأن تصوير الفضيلة وتقدير الأخلاق يتحول بين عصر وعصر .

ولا مرية أنه لا يتوقع بهذه الصيحات أن يقضى على ما تموج به الحياة من تغير عقلى ونفسىّ ، فهو فى دخيلة نفسه يَقْنَع بأن يكون هذا التطور منظّماً يبرأ من طفرات التهور ومساوىء الإفراط . . .

إنه لأحكم عقلا وأنور بصيرة من أن يطمح فى أن تنزل النساء إلى البحر ملففات فى المُلاءَة والحِبَر . . .

ومن الطريف أن الغوانى يسمعن صوت الشيخ العاصف يملأ الأرجاء بالأصداء ، ويَرَيْنَ هراوته الصلبة تتَطوّح ذات اليمين وذات الشمال ، فلا يأخذهن الفزع منه ، ولا يشعرن بحفيظة له ، بل إنهن ليدركن أن من وراء عنف الشيخ وشدة مراسه ، رقةَ جانب وإيناس طبع ، وأنه مع هذا التحفظ والتخشُّن يحمل بين جنبيه قلب شاعر وروح فنان !

عبقرية الشيخ تتمثل فيما استطاعه من أن يصبّ جام غضبه وثورته على الناس دون أن يستشعروا له مَقْتاً وكراهة ، بل لقد أنِسُوا به ، ومالوا إليه ، فكسب مودة الرجال والنساء على سواء ، وهو لذلك جدير أن يلقب بالمؤدِّب المحبوب !

أليس من المفارقة أن يكون الشيخ اسمه « أبو العيون » ثم يريدنا أن نغمض عيوننا عن بدائع الحسن وروائع الجمال ، كأنما يريد أن يستأثر وحده بالنظر والاستمتاع ، إذ يكون وحدَه حقًّا « أبا العيون » ؟ !

إسماعيل شوقي

لما سئلت أن أكتب فى شأن شقيق « إسماعيل » ، ألفيتنى فى حيرة مضنية . هل ألبى دعوة السائل ، فأقدم صورة شخص من أحب الناس عندى ، وأقربهم إلى ، صورة قد يجد فيها القارىء لونا من التحيز يثير استخفافه ؟ ... هل أتنحى لغيرى ، يتحدث فى شأن مهما يحاول الإجادة فيه ، فهو ناقص مبتور؟ ... وهل يستطيع الغريب أن يبلغ الإخلاص فى قوله ، والصدق فى نظره ، مبلغ الأخ الشقيق ؟

إذاً لا بد مما ليس منه بدّ ، فلأتذرع بالشجاعة ، والله نصيرى !

إذا شئنا أن نكتنه شخصية « الأمين الأول » تعيّن أن نعود القَهْقَرَى عشرات الأعوام ، فنصاحبه وقتا وهو صبيّ يافع ، موزّع الوقت بين المنزل والمدرسة .. فى هذه السن المبكرة ، بدأت شخصية « إسماعيل » تتوضّح ، وتخط لها طريقا معيّنا فى الحياة ، وكلما تعاقبت السنون ، تجلت هذه الشخصية مكتملة ثابتة المعالم ...

كان يعتز دائماً بمنزلته فى الأسرة ، منزلة الابن البكر ، وأراد بدافع — غير واع — أن يثبت لنا جدارته بهذه المكانة ، فاتخذ له بيننا شخصية « الزعيم » .

وكنا إخوة ثلاثة ، أولنا « إسماعيل » وثانينا « محمد » والثالث : كاتب هذه السطور . ومع أن البَوْنَ لم يكن شاسعاً بين أعمارنا ؛ استطاع « إسماعيل » أن يُزْعِمَ علينا ، وقَبِلْنا نحن هذه الزعامة راضيين ، إذْ لحنا فيه مطامح رجولة مبكرة ، منطوية على رزانة وتعقّل ، بعيدة عن طيش الطفولة وعبث الصبا ، فإن شاركنا فى اللعب ، وجدناه على الدوام يتخذ فينا مكان الرياسة ، وحين ألّفنا فرقتنا التمثيلية البيتية ، اضطلع هو بأدوار الزعماء من قادة وملوك ، فلما اشتد عودنا ، وخطرنا فى رحاب الشباب خطانا الأولى أحجم « إسماعيل » عن مشاركتنا فى لعب الكرة ، وسباق العدو ، وما إلى ذلك من صنوف الملاعب كذلك أعفى نفسه من التحرير فى صحيفتنا المنزلية ، وانصرف مقبلا على الدار ، يصرّف شئونها مقتدراً لا يعييه شىء . وإذ يشهدنا فى لَبُوس الرياضة ، خارجين إلى الملعب ، يفترّ ثغرُه عن ابتسامة الأب العطوف !

وتلاحقت بنا الأعوام ، فإذا « إسماعيل » يشرف على مزارعنا

بالريف ، ويديرها فى نشاط ودراية أسبغت على الوالد فى أخريات أيامه طمأنينة وراحة بال .

وكان فى كل أطواره تلك ، يمثل النظام والمثابرة وصون التقاليد فى أدق مظاهرها ، فلا غرو إن جلس اليوم فى منصب يتطلب ممن يشغله تلك الخصال التى لازمت « إسماعيل » منذ الصبا ، فصارت فيه الآن طبعاً أصيلا لا يملك منه الفكاك . . .

هذه صورة موجزة لـ « إسماعيل » حتى بلوغه منصبه الحاضر فى القصر الملكى . وهى خليقة أن تثبت لنا أن الطفل فى سنيه الأولى لم يكن إلا صورة مصغرة من رجل المستقبل ، تجمعت فيها أمياله وخلاله .

ولما كنت الآن فى معرض التحليل لشخصية « إسماعيل » فلزام علىّ أن أستكمل صورته فى مختلف نواحيها . وبتعبير آخر : يجب أن أتناول بالحديث جانباً مجهولا من شخصيته فلقد فرضت عليه مقتضيات الحياة وملابساتها — من عهد الحداثة . حتى أصبح الأمين الأول — واجبات الإدارى الموهوب الراعى للتقاليد ، فحدّت من حريته ، وضيقت من آفاقه ، فمنعته أن يستمتع طفلا بكل ما فى الطفولة من مرح وصخب ، ودفعته وهو فى زهوة الشباب المفعم بالغوايات أن يسلك طريق العمل المتواصل ،

ويقصر جهده فى الحصول على الشهادات العالية ، متطلعاً أبداً إلى مرتبة تواتى نزعاته وأمانيه .

أجل ، إن مقتضيات الحياة وملابساتها قد حبفت حياة « إسماعيل » بلون لم يكن مشرقاً كل الإشراق ، فخلعت عليه فى سن مبكرة وقار الشيوخ وحنكة المجربين ، وقد قابل « إسماعيل » هذا بالرضا ، وأذعن له بالطوع . ولكن « الطبيعة » الجبارة لم تخضع ولم يكن لها عزم ، فانطلقت تعمل فى الخفاء لتنتقم من جد « إسماعيل » ووقاره ، ولتنال من مجال الحياة مسرات تعوضها عما فقدته وما تزال تفقده ، فظهر على الأثر فى شخصيته جانب آخر له خطره .

وإنى إذ أعتزم رفع الستر عن هذا الجانب ، أرانى قد أقحمت نفسى فى مأزق لا يعلم إلا الله أين منه سبيلى إلى الخلاص ؟ !

وقبل أن أفضى إليك بالسر الكمين ، أريد أن أصحبك فى رحلة قصيرة إلى « مكتب الأمين الأول » فى قصر عابدين . فإذا ما اجتزت عتبة الباب ، طالعك على الفور شخصه خلف مكتبه ، وهو آخذ بسماعات « التليفون » يصغى إلى ماتنقله إليه من أحاديث مختلفة الألوان واللهجات . فيجيب عليها فى وقت واحد لبقاً غير متعسر . وأمامه كومات من الأوراق يرمقها ورمقه فى عتاب

وحذر ، وهو فى الوقت نفسه لا يفوته أن يحتفى بوفود الزوار التى لا ينقطع لها سيل ، يسأل هذا عن صحته ، ويبادل ذلك حديثاً يتعلق بالجو ، ويجامل ثالثا بجملة خاطفة ، ورابعاً بتحية تتجمع فيها أصول اللباقة والأدب الرفيع . وقد تكون مشتبكاً معه فى نقاش مهم ، فترفع بصرك إليه فلا تجده ، فترسل بنظرك فيما حولك تبحث عنه ، فإذا هو فى البهو يستقبل جمعاً من الوفود ، مستمعاً إلى خطبائه ، مجيباً كل خطيب بما يُشْلِجُ صدره ، ثم لا تلبث أن تراه قد عاد إلى مجلسه الأول معك يتابع نقاشه فى بشر وطلاقة . . .

وهناك فئة من الزوّار يصح أن نسميها «الأطياف» وأكثرها من ذوى المقامات الممتازة ، فهى لا تكاد تبدو فى الحجرة حتى تختفى فى لمح البصر ، ولا يملك إسماعيل ، إلا أن يغدو طيفاً مثلها ، يلاحقها ويتابعها ، فلا تفطن إلى مكانه إلا بنبرات صوته . . . يقع هذا كله ، ورهط من إخوانه موظفى القصر ، واقفون أمام مكتبه ، مرتقبون مَقْدَمَه ، يحمل كل منهم إضمامة أوراق ، يبتغى عرضها عليه فى خلوة عاجلة .

خلف هذه التكاليف والمراسم ، يكمن الجانب الفذ من شخصية « إسماعيل » ، وقد حان أن نجلوه لأعين القراء . . . هذا الجانب يمثل

« إسماعيل » الساخر المتهكم ، فأما رمز هذه السخرية وهذا التهكم ، فهو ابتسامة خفيفة تعلو شفتيه ، هي في مظاهرها كسطح البحر الهادئ تحسبه ضحضاحا ، ولكنه في الحق غمر بعيد القاع . . .

وإن « إسماعيل » ليعتز بهذه الابتسامة اعتزازه بأغلى الأشياء ، وهي في نظره بمثابة خط « ماجينو » أو « سيجفريد » يحشد خلفها جيوشه المنظمة ، ثم يطلقها عند الحاجة لا لتقتل وتدمر ، بل لتثير روح الدعابة اللطيفة ، وتحيل ذلك الجو المتحفظ الوقور جواً رقيقاً يشمله الإيناس والبشاشة .

وإني لا أخشى شيئاً خشيتي لهذه الابتسامة ، فإن لمحت طيفها يتخايل على وجهه ، أيقنت أن ثمة إعصاراً من التهكم قد أخذ يتجمع في صمت وسكون ، فأعد العدة فورا للفرار ، وإلا كنت في الفخ ضمن المصيد !

ومادام هناك تهكم ، فواجب أن تكون هناك فئة المتهكم عليهم . وأولئك هم الذين يسميهم رفعة « حسنين باشا » بـ « الضحايا » . . وإننا نحمد الله على أن « الأمين الأول » ، قد قصر تهكمه الصامت وعبثه الخفي ، على طائفة محدودة مختارة ، يستبقيها في مجلس خاص ، ثم يطلق الفرد أو الجماعة منها ، كلما استبدت بنفسه رغبة التهكم الجامحة ، ويجعل منها مفزعاً وسلوى .

وإنك لتعجب من أن هذه الطائفة المختارة ، دائمة التجدّد ، والسر فى ذلك أن لـ « إسماعيل » عيوناً ومندوبين يبثهم فى مختلف المناطق ، هنا فى « القاهرة » ، وهناك فى الريف ، يتصيّدون الشخصيات البارزة ، ويقدمونها له غنائم لا ينقطع لها ورد !

ولرفعة « حسنين باشا » غرام بضحايا « إسماعيل » ، ولا يسعنا أن نُخليه من تبعة وجودها ، فهو شريك « إسماعيل » فيها ، وإن كان يفضّل أن يرعاها على البُعد .

ولا يكاد « حسنين باشا » يقتحم القصر ، ويقع بصره على « الأمين الأول » ، حتى يسأله فى لهفة عن « الضحايا » فيأخذه « إسماعيل » بيده إلى مجتمعهم العجيب ، فإذا هم مجموعة نادرة من الطوائف البشرية ، لو صادفتها فى مُتحف من متاحف التاريخ الطبيعى لم تصدّق عينيك . . . مجموعة تحوى شخصيات من مختلف العصور والأجناس : هذا تركى من أتراك القرون الوسطى ، يميل إلى مملوك من حكام الأقاليم فى العهد الغابر ، بينهما شيخ من معاصرى « الجبرتى » ، على مقربة منهم ألبانى من معاصرى العهد العثمانى ، يجالس عالماً لم يسمع بعلمه أحد ، وطبيباً لم يتجاوز اسمه عتبة حجرته . . .

وإن هذه الطائفة الكريمة لتقف صفاً أمام الصديقين ،

يعرضانها كأنما يعرضان «قره قول شرف» ... ثم توزع عليهم بعد ذلك أقداح القهوة، ولفائف التبغ، وملحقاتها !

ولعلك لا تعرف أن نزعة التهكم الخفية القابعة خلف شخصية «إسماعيل» الظاهرة تنافسها نزعة مماثلة فى شخصية «حسنين باشا» فإذا سمينا «إسماعيل» : «بولبير الصامت»، أو : «المداعب الظريف» لم تجد «لحسنين باشا» أليق من فولتير الهادى"، أو : الساخر الرشيق !

تلك صورة سريعة، أقدمها للقراء على حقيقتها، وإنى لموقن بأن الحساب سيكون بسببها غير يسير، على أنى فوّضت أمرى إلى الله ...

بشر فارس

تلقيت يوما دعوة من إحدى الهيئات العلمية ، ولا أدرى متى جرى ذلك على وجه التحقيق ، وكانت الدعوة لسماع محاضرة لغوية لبحّاثة معروف ، سمعتُ به ، ولكنى لم أره بعد .

فذهبت وقد تخيلتُ لهذا المحاضر صورة تتفق مع موضوع محاضرته . . . رجلا أشرف على الخمسين ، بشارب مهدّل ، وعينين مجهودتين ، وصوت مُتَآكِّل . فما كدت أستقر فى مكانى من القاعة ، وأرفع بصرى إلى المحاضر ، وقد اعتلى منصة الخطابة ، وبدأ يلقى محاضرته ، حتى طالعتْنى صورة أدهشَتْنى جدّ الدهشة . رأيتنى أمام فتى كله شباب وحيوية ، بعينين تلمعان ذكاء : له وجه صبيح ، بشارب طرير مشذّب على الطريقة الفرنسية ، وقوام إغريقى يذكّرنا بتماثيل « براكسيتيل » !

فتشككتُ فى الأمر ، وحسِبْت أنه قد جدّ تغيير فى المحاضرة

والحاضر ، واختبيت على صديق بجوارى أتبيّن منه حقيقة الحال ، فأكد لى أن المتكلم هو الدكتور « بشر فارس » نفسه !

ورحت أستمع ، فإذا بالمحاضر يلقى بحثه بصوت جميل النبرات ، فى لهجة فصيحة ، تتوضح فيها دقة الأداء ، وحسن اختيار لمواقف الجمل ، وحرص على سلامة مخارج الحروف . كل ذلك فى اتساق وانسجام كاتساق النغمات وانسجامها فى اللحن الفنىّ البارع !

واتسعت مسالك البحث وتشعبت ، بيد أن المحاضِر كان قابضا على زمام موضوعه قبضة جبار ، يديره فى حنكة ، إدارة الربان الماهر لباخرته وسط العُباب الصاخب . . . حتى انتهى به أخيرا إلى شاطئ السلام !

* * *

منذ ذلك اليوم عرفتُ الدكتور « بشر فارس » وما أسرع أن توثقت صلاتى به . . فتجلت لى فيه شخصية أخرى غير شخصية ذلك العالم المحقق — تلك شخصية الصديق الوَدود المَرِح ، فالابتسامة اللطيفة التى طالما انقلبت إلى ضحكة عابثة لا تفارق ثغره ، والنكتة المصرية اللبقة تظل محلقة فى سماء مجالسه . وقد يمضى فى حديثه الطريف ، فلا يكاد يروى لك أخباره عن « باريس » ، وما شاهده فى دُور العلم بها ، وما لقيه فى مغانى عبثها ولهوها . حتى ينتقل بك

إلى قهوة « الفيشاوى » ومطعم « الحلوجى » ، فيحدثك عن الشاى الأخضر ، وصحاف « الطعمية » الفاخرة تحيط بها أصناف المشهيات . . ومن ثم يختفى أمامك العالم الجهنمى ، ليحل مكانه « ابن البلد » الوجيه العريق فى المصرية ، فلا يهوزه إلا « اللاثة » يديرها على رأسه ، فينطلق فى مسارح « سيدنا الحسين » يلوّح فى يمينه بعصا « الفتوّة » !

والحق أن جلسة واحدة مع الدكتور « بشر » تريح الأعصاب وتملأ القلب من إيناس ، وتحوّل نظر المرء إلى الناحية الرّفافة الجميلة فى الحياة .

* * *

صَاحِبُنَا الدكتورُ « بشر » وقتا ، ثم طلبناه حينا فلم نجده فكأنه « فصّ ملح وذاب » كما يقولون . . ثم عاد إلى الظهور ، ولكن فى فترات متقطعة نادرة . كنا نراه اتفاقا فى الطريق مهرولا لا يقر له قرار ، وهو محاط بشرذمة من النجارين والحدادين والطلائين ، فإذا ما استوقفناه ، فسألناه عن سبب غيبته ، أشار إلى مرافقيه ، وقال ، وهو يتأفف فى لهفة المكدود : ألا ترون أنى مشغول ؟ ! ويتابع سيره فى عجلة واهتمام ، وقد اشتبك مع صُنّاعه فى مناقشة حادّة ، فلا نشك لحظة فى أنه ودّع العلم والأدب ، والتحق بزمرة « المقاولين » !

وبينما كنا فى مجلس نذكر صديقنا « بشرا » بالخير ، ونأسف لتوديعه الأدب ، إذا به يفاجئنا بدعوة ظريفة إلى مسكنه الجديد فى « جاردن ستى » ، فقمنا من ساعتنا إليه ، فوجدنا أنفسنا فى مُتْحَف فنّى ، كل ما فيه يَشِفُّ عن ذوق سليم غاية فى السموّ .

وجعل صاحب الدار يمر بنا فى مقاصير المسكن وقاعاته المنشأة على أحسن طراز . ويقف بنا أمام تحفه واحدة بعد أخرى ، وهو يشرح لنا تاريخها وقيمتها شرح خبير . فهنا صورة طريفة محلاة بإمضاء فنان ، وهنالك تحْفة من الفن الصينىّ الثمين يرجع تاريخ صنعها إلى عهود غابرة ، ترى بجوارها مقعدا لطيفا على شكل رَحْل من رِحال الجمال . وفى ركن من أركان الغرفة يقوم ذلك الرّفّ الساذَج البديع ، يحتضن « تاييس » و « مدام بوفارى » و « أفروديت » وهن فى أثوابهن الغالية الفاتنة !

ففطنّا بعد لأيٍ إلى سرّ غيبة الصديق ، وطفقنا نطوف معه ذلك « المَزَار » المبتكر . . . حيث يَعْبَق فى جوه عطر الفن وتشمله روح الجمال !

طابع الفن والجمال يَسِمُ حياة الدكتور « بشر » بأكملها . . يسم شخصه ومسكنه وتآليفه وكل أسباب عيشه ، فإذا ما قرأت له مقالا رأيته ألْبَسَ الفكرة العميقة والرأى الناضج ألفاظا ينتقيها

فى حكمة ، وينسقها فى صبر وجلد ، ثم ينضدها تنضيد العِقْدِ على صدر الحسناء !

فإذا لقيتَ شخصه ، ألفيت أمامك شابا أنيقا يحسن كيف يلائم بين لون رباط الرقبة والقميص والحُلَّةِ ، ليخرج منها صورة فنية طريفة .

ولصديق « بشر » شخصيتان : شخصية الأديب ، وشخصية العالم ، تتنازعانه على الدوام . . . ولا ندرى أيتهما يقدَّر لها الفوز على الأخرى ؟ فقد أصدر فى عام مضى مسرحيته الرمزية « مَفْرِق الطريق » . فتلألأت نجما جديدا فى سماء الأدب الرفيع . وظهر له منذ فترة كتابه : « مباحث عربية » ، فإذا هو سفر قد لا نغالى إذا قلنا إنه فى طليعة الآثار العلمية التى تمخض عنها العصر الحديث ، من حيث دقة البحث ، واستيعاب الموضوع ، وحسن الصياغة ، والبراعة فى التنسيق والتنميق . كل ذلك على أحدث نهج علمىّ خطّطه علماء الاستشراق .

ونحن اليوم نتتبع خطوات « بشر فارس » وهو يروح ويغدو ، يَنْحِتُ الصخر آنا فى مفاوز العلم ، ويَنْظِمُ الزهرَ حينا فى خمائل الأدب ، ونتساءل فى حيرة : إلى أى مدى يستطيع الصديق أن يحتفظ بشخصيتيه المستقلتين ؟ وهل فى الإمكان أن يجمع المرء

بين الأدب والعلم ، ولا يستشعر فى دخيلة نفسه ذلك التنافر القائم بين هذين العنصرين النفيسين اللذين لا يهدأ لها حال إلا إذا أخضع أحدهما زميله واستعبده ؟ !

* * *

وللدكتور « بشر » نواح خفية ، لا يعرفهـــا إلا أصدقاؤه الخلصاء ، وإنى لمذيع بعضها ، وأمرى إلى الله ... فقد يحاسبنى على إفشائها حسابا عسيرا !

إن صديقى « بشرا » — ولنخفض أصواتنا قليلا — رجل ذوّاقة فى المآكل ، واسع الاطلاع على ألوان الطعام ، عظيم الخبرة بكل ما تزدان به الموائد ... وإنها لمتعة حقا حين تسمعه يحدثك عن صحاف الأطعمة المختلفة واحدة بعد أخرى ، يروى لك — وعيناه تلمعان لمعان المرق الشهىّ — كيف يشترى بنفسه الزُّبْدَ الطازج ، ويلتقى عند الجزار أطايب اللحم ، وكيف يقف أمام الفرن يحمر الصنف الذى يحبّ ، ثم لا يلبث أن يأتى عليه ولما يتمّ نضجه على النار ، مقتفيا أثر المثل الصالح : خير البر عاجله !

ولصديقنا « بشر » جولات موفقة فى مطاعم المدينة ، فهو إذا دخل أحدها لا يطلب القائمة ، ولا يُعْنَىَ بمكانه من المائدة ، بل يطلب أن يدلوه فورا على المطبخ . وثَمَّ يكشف عن القدور

يتفحصها تفحّص عارف ، ثم يشير أخيرا إلى واحدة منها ، فيحضرونها له بأكملها ... ويشمّر الدكتور عن ساعد الجوع غير مخشيّ وتتلذ بأناقته ، وينكبّ على القِدر ، فيأتى — فى لحظة خاطفة — على ما تَعِبَ الطاهى فى صنعه ساعات طويلة !

وإنى أنصح — نصيحةَ مجرب ! — لمن أصيب فى معدته ، ورغب فى دواء ناجع لإصلاحها أن يأتى بالدكتور « بشر » عن يمينه و « زكى طليمات » عن يساره ، ثم يراقبهما هنيهة وهما يتناضلان فى معركة القدور كرًّا وفرًّا ... فإنه لا يُتمّم أن يشعر بمعدته تتصايح فى ثورة جامحة ، وإذا به ينطلق هو أيضا فى صحاف الطعام يفتك بما فيها فتْك مِغْوار !

ذكرى طلبات

منذ أربعين سنة ونيّف ، سجّل أصيل يوم من أيام الصيف ، باكورة لقائى لصديق « طلبات » .

وأرجو ألا يستعجل صديقى بالإنكار علىّ فى عدد هذه السنين ، فإن هذا اعتراف منى يلزمنى ويعفيه من الإلزام ، وإنه لطليق من تبعاته ما وسعه جهد الشباب !

كنتُ إذ ذاك فى مؤتنف الصبا ، أسكن بيتنا العتيق فى حىّ « درب سعادة » ، وكانت حجرتى تشرف على حديقة البيت التى تتكاثف خمائلها ، وتتضايق مسالكها ، فتريك الغابة فى صورة مصغّرة .

وبينما أنا أطل ساعة من النافذة ، إذ لمحتُ غلاماً يشمّر فى يمينه مُديةً يبرق حدها تحت شعاع الشمس ، وهو يعدو خلف صبيّ البستانى ، يحاول اللحاق به ، فلما أدركه سلط المدية عليه يريد

إعمالها فى رقبته ، فبادر بعض خدم البيت إليهما ، وحالوا بينهما قبل أن يسبقَ السيفُ العَذَل !

وبعد ساعة أو بعض ساعة ، دُعِيتُ إلى لقاء زائرة من كرائم السيدات ، فلما خففتُ إليها قدّمتْ إلىّ صبيا ما كدت أراه حتى تبينتُ أنه هو صاحب المُدْيَة ، وبطل موقعة البستان !

فاستشعرتَ الخشية منه ، وتباطأت عن تحيته ، ولكنه أسرع يجذبنى ، فنزلنا إلى الحديقة نلعب معا .

ومرت لحظات فى صحبة هذا الرفيق الجديد ، ملأتنى أُنْسا به . وتطلعا إليه ، فقد هزّ سمعى بحديثه العامر بالطرائف والأعاجيب . ولكن منظر المدية ، وهى تتشرئبّ من جيبه ، كان يعكر على طمأنينتى إليه ، وجعلت أستدرجه فى الحديث مترفقا ، لأعرف سرّ حملته على صبىّ البستانى ، فأنحَى على ذلك الصبىّ يصف غلظته وتوقحه ، وينْحَى عليه وقوفه فى طريقه ، إذ منعه من تسلق الشجرة وانتزاع شىء من أغصانه .

وانبرى رفيقى يقول ، وقد استل المدية من جيبه :

لولا ازدحام الناس علىّ ، ومنعهم إياى ، لرَوَّيْتُ أرض البستان بدم ذلك الغِرّ المأفون !

وثارت بى مشاعر مختلفة ساقت يدى إلى تلك المدية فى محاذرة

واحتراس ، فما إن قلبتها ظهرا وبطنا حتى استبان لى أنها سكين من صفيح يتثنى مع الريح !

مال علىّ الرفيق يقول فى زهو ومرح :

لو زرتَ بيتى لأريتُكَ ما أملك من عُدة الحرب والضرب ، وأدوات الطعن والفتك !

وتابع خطواته معى ، وهو يبسط لى أنباء مغامراته التى يستخدم فيها تلك العدة وهذه الأدوات ، مطنبا فى الوصف ، مسترسلا فى الحديث . . .

وذهبت إليه فى منزله يوما ، مصحوبا بشقيقىّ الكبيرين ، فتبينتُ صِدْقَه فيما كان يخبرنى به ، إذ بهر عينى ما عرضه علينا من عتاد حربى : خناجر وأسياف ، بنادق وقذائف ، ولكنه عَتاد زائف من رميم وحُطام !

كذلك كانت فاتحة التعارف بينى وبين صديقى « طليمات » . . .

ومنذ هذا الحين ، تواصلت بيننا المودة فى ركب الأيام .

وكلما تعاقبت علينا العهود تكشفت لى جوانب من تلك الشخصية الزاخرة بالطريف العجيب من شمائل وملكات . . .

ولا مَنجاة لى من الإقرار بأن صديقى « طليمات » ، إذا ضاق

اليومَ ذَرْعا بأثقال التمثيل ، فإنى عن بعض ذلك مسئول ، وعلىّ من التبعة نصيب غير منكور .

لقد كنت أنا وشقيقاى ، نأنس بدعوته إلى مشاهدة المسرحيات فى فرقة « اسكندر فرح » وفرقة « سلامة حجازى » نطاوع بذلك ميلنا لهذا الفن الجميل ، ونجارى طموحنا إلى التزود منه ، والاستمتاع به . وعلى مرّ الأيام يَوثق هوانا له ، ويبلغ بنا التعلق به كل مبلغ ، حتى جعلنا من أشخاصنا أبطال تأليف وتمثيل ، ومن أبهاء دارنا مسارح ، ومن مُلاءات الأسرة ومفارشها أستارا ومناظر ، ومن أهل الدار وحاشيتها وزّوارها جمهورا يشهد ما نقدم من مسرحيات .

وكان أكبر الظن أن تخبو تلك الجذوة الصبيانية بانقضاء عهد الحداثة ، وأن تنطوى تلك الألاعيب باستقبالنا جِدّ الحياة فى عُنفوان الشباب .

ولكن الأقدار دبّرت لنا حادثا كان له كبير أثر فى حياتى وفى حياة صديق « طليمات » . . . ذلك أن شقيقى الأوسط « محمد تيمور » رحل إلى « باريس » يستكمل دراسته العليا ، حاملا معه قبسا من تلك الجذوة التى تلهبه شوقا إلى فن التمثيل ، فبقى ثلاثة أعوام يتنقل فى مجالى الفن ، ويغترف من مناهله ، مطلقا لنفسه العنان .

وعاد أدراجه إلى ربوع الوطن، يقصّ علينا روائع ما شهد، ويتحدث عن الفن الأوربى حديث دراسة وشرح وتحليل. تشيع فى لهجته حماسة فى الوصف، ونشوة فى العرض، وحمية تفصح حرارتها عن فورة إحساس، وصدق إيمان . . .

وأبى «محمد» إلا أن يشرع الطريق، ويشق الأفق، فاقتحم الغمار بنفسه مؤلفا وممثلا ومرشدا على وجه عام . . . وكنا — أنا و «طليمات» — من ورائه، نقفو خطاه، ونسير فى ركبه، يحدونا تطلع وإعجاب.

وكان شقيقى كلما ضرب فى لجة الفن ضربة، اهتز صديقى «طليمات» هزة . . . حتى حان الوقت الذى فقد فيه الصديق توازنه، فطرح عنه أغلال التقاليد؛ تذيبه حمى التمثيل، وقطع دراسته العليا، ليلحق بإحدى الفرق التمثيلية القائمة فى تلك الأيام.

ومن ثم بدأ «طليمات» عهدا جديدا فى حياته، مازال يواصل تجديده وتنميته، وها هو ذا اليوم يتمتع فيه بالصيت الطائر، والمجد الزاهر. ولكنى على الرغم من ذلك لا أدرى، ولا يدرى هو نفسه الآن: أكان مخطئا فى إقباله يومئذ على ذلك العهد الفنى؟ أم كان على صواب؟

لم يكن التمثيل فى تلك الحقبة إلا مجالدة صِعاب، واقتحام

عقبات ، واحتمال مكاره ، دون أن يكون من وراء ذلك كله مغنم يُذكر ، أو جاه يشار إليه بالبنان . .

بيد أن صديقنا « طلبات » ظل يطاول ويصابر ، حتى أشرف على نهاية لم يأمن فيها على نفسه ، فآثر أن يعتزل هذا الجهاد العقيم ، ضناً بوقت يضيع ، وشباب يذهب هباء .

دخل الشاب ميدان العمل الحكومى ، موظفاً فى « حديقة الحيوان » وأخذ يرقب الفرص ، ويرصد الأحداث ، وهو لا ينفك مفكراً فى ميله الفنى ، طلاعاً إلى فرج قريب .

وفى أرجاء تلك الحديقة الرحيبة كان أخونا « طلبات » يجول وحده ، مطلقاً لخياله أجنحة خفاقة ، واجداً لفكره مسرحاً بعيد المدى .

كانت هذه الفترة من حياته فترة تأمل عميق ، وفرصة دراسة واطلاع ، ولقد أفاد من هذه الأيام الهادئة فائدة صاحبته ثمارها فى مختلف مراحل حياته من بَعْدُ .

ولا مرية فى أنه قد لقى فى عشرة الحيوان الطيب البرىء ، من الصفاء والطمأنينة ، ما نَفّس عنه كربته التى عاناها فى صحبته مع الإنسان !

بضعة أعوام قضاها صامتاً ساكن الطائر ، يَرْتَدُّ من أعصابه

ماتمزق ، ويأسو من جراح قلبه ما كان داميا .

ولكن هل يستطيع ذلك الشاب الثائر الطموح أن يخلد إلى دعة وسكينة ، وأن يأنس بالهدوء والركون ، إلا بمقدار ما تندمل جراحه ، وتتجدد قواه ، ويرجع إليه موفور العزم والإقدام؟

أو قادر هو على أن يبقى فى حديقة الحيوان ، حبيساً يقنع بعشرة العجماوات الطيبة ، مكفولا له رزقه فى رغد وأمان؟

حتى متى يغالب نزعة الفن الفوارة بين حناياه ؟

لاح له بغتة فى الأفق نجم يلتمع . . .

أنجم سعد هو ، فيتفاءل به ويستبشر ؟

لم يكن ذلك النجم الطالع إلا مباراة عقدتها الحكومة تشجيعا للتمثيل ، وتقديراً لعشاقه ، فدخل « طليمات » هذه المباراة فيمن دخل ، وخرج منها حاملا قصب السبق . فما هى إلا أن شخص إلى « باريس » مبعوثا رسميا للتخصص فى دراسة فن التمثيل ، والتمرس به .

هذا طور جديد من أطوار حياة الصديق . . .

إنه طور حاسم تقرر به مصيره ، فليتقدم فيه ، مؤمناً بأنه لا محيد عنه من بعد ولا نكوص .

سنون قضاها « طليمات » فى معهد الفن العتيد ، وفى ربوعه الأصيلة ، فلبث هنالك للفن ربيباً ، يمرح فى أحضانه ، ويغتذى بلبانه .

ظل « طلیمات » فی « باریس » هَیْمَانَ عطشان ، ینهل من الدراسة الفنیة المنظمة فی مختلف مناحی التمثیل ؛ ورجع إلی وطنه وقد اختمرت خبرته بالفن ، واستوی نَمُوذَجا جدیداً للفنان العلیم ، تختلج بین جنبات نفسه مطامح وآمال وأهداف .

واندفع الرجل فی غِمَار حیاته الجدیدة ، مشرفا علی شئون التمثیل فی الدولة ، یحاول أن یبنی ، وأن یقیم صروحا ویشق آفاقا ، فکانت تعلو به الحیاة وتهبط ، وتعبث به الریاح أحیانا یمنة ویسرة ، إلا أنه مافترت له همة ، ولا أدرکه کلال ، فاستطاع بعد لأی أن یصل ، وأن یُشْرِف من بنائه العالی إشراف منتصر غلاب !

برهن « طلیمات » علی أنه ممثل راسخ القدم ، وأنه مخرج فی الطلیعة ، یساير التطوّر ، ویقتبس الطریف ، وأنه أستاذ أصیل یطبع جیلا بطابعه الجدید ، جیلا من شباب الفن علی نهج قویم . . وها هوذا معهد التمثیل — غَرْس یدیه ، وثمرة جهاده — کأنما هو إذاعة موصولة تَتَغَنَّی باسم « طلیمات » !

هل لنا أن نتساءل الیوم :

أیّ باعث نفسی کمین هتف بذلك الفنان لیؤدی رسالته فی الحیاة؟

إن المستبطن لخفایا هذه النفس لیری لِزاما علیه أن یجاهر بأن ذلك الباعث القویّ لم یکن إلا الشعور بالنقص .

وإن هذا الشعور لخلة عجيبة تتدسس إلى كبار النفوس ، فتعمل فيها عمل السحر . . .

هذه الخلة التى توصف بالنقص ليست إلا وسيلة إلى الكمال !

لا عظيم فى منحى من مناحى العظمة إلا يدين لهذه الخلة بما توافر له من تبريز واستعلاء . . .

تُرى أىّ نقص ذلك الذى أحسّ به الناشىء الموهوب « طليمات » فعمل فى نفسه ، وحفزه إلى أن يستكمل مافات ، ويتعوّض مما خسر ؟

نشأ الصبى فى بيت نعمة ، يتقلب فى أعطاف رفاهة ، حتى ألف الحفاوة والإعزاز ، ولكن حوادث الدهر مكرت به ، وبيّتت له غدرة عصفت بذلك التنعم واليسار ، فألفى نفسه يواجه حياة تنكر له ، وتريده على غير ماتعوّد ، وتلزمه التعويل على جهده فى أمره ، فانطوت نفسه على رغبة فى التعويض ، هى رغبة الظهور ، هى الطموح إلى أن يحدق به أنظار التقدير والإعجاب.

ولقد باكرته تلك النزعة فى عنفوان صباه ، فلم تجد لها متنفساً إلا فى ضروب من المعابثات والمشاكسات عليها سمات المغامرة والبطولة ، وفيها دلائل الجرأة والنهور . وإنه ليطاوع تلك النزعة الناجمة ، فيصطنع من الوسائل والأسباب مايرضى به نفسه الجياشة .

وليس أدل على ذلك من حرصه على اتخاذ الصفائح سيوفاً

ورماحاً لمحاربة ونزال ، وليست مشاكسته لصبيّ البستانى التى روينا قصتها فى مطالع هذه الكلمة إلا قطرة من ينبوع تلك النفس النزاعة إلى غلبة وسلطان !

ولما شبّ « طليمات » أنِس بميدان التمثيل ، إذ لقى فى رحابه مهواناً على الظهور ، واجتذاب الأنظار ، واستدرار الإعجاب ، فما لبث أن تعلق به ، واندمج فيه ، وجند له مواهبه ، ولم يهدأ له بال حتى أصبح من قادته الأكفاء .

أمر عجيب فى حياة « طليمات » الفنية ، كان موضع ملاحظة وتساؤل ، ذلك أنه يبلغ القمة حين يقوم بتمثيل أدوار الأشرار ...

فهل هناك صلة بين طبيعة الفنان ، وبين قدرته على التعبير ، فإذا كان شريراً استطاع أن يعبر عن الشر التعبير الأقوى ، وإذا كان طيب النفس استطاع أن يمثل الطيبة فيما ينهض به من فنه ؟

الجواب عن هذا السؤال فى نظرى هو أن الفنان دائماً يجيد التعبير فى الناحية التى تعوزه فى طبيعته الكامنة ، فإذا كان يائس النفس غلبت عليه فى فنه رغبة المرح واللهو ، وإن كان ضحوك السن مراحاً لم يعجزه أن يعبر فى فنه عن الجدّ وتمثيل الشعور الحزين . وقس على ذلك تشدق الجبان بالشجاعة ، والمتلاف بالحرص ، والعاجز ببعد الهمة . وقد وجدنا أمثلة ذلك فى الشعراء . فهذا « جرير » الذى لم تكن له بالمرأة مواصلة ومغامرة ، كان أرق الناس غزلا . وبجانبه

« الفرزدق » الذى عُرف بأنه زير نساء لم يكن له غزل مشبوب .

وكذلك نجد أمثلته بين رجال السينما المعاصرين . فهذا « شارلى شابلن » ينحو فى حياته الخاصة منحى العزلة والنفور من المجتمع والانطواء على النفس ، مع أنه أقدر ممثل هزلى عرفه العصر الحديث فى العالم الفنى .

وأكبر ظنى أن التفسير الصحيح لهذه الظاهرة ، هو أن أولئك الفنانين يكملون فى عملهم الفنى ما حُرِموه فى حياتهم الخاصة التى هيأتها لهم طبيعتهم الظاهرة .

وقياسا على هذا التفسير يمكننا أن نعرف : لماذا ينجح صديقنا « طليمات » فى تمثيل أدوار الأشرار ، فقد ظهر فى « شيلوك » المرابى فى مسرحية « تاجر البندقية » وصاحب المصنع الوغد فى فلم « العامل » وفى غيرهما من الشخصيات الشريرة ممثلا بارعا يتقمص الشخصية التى يمثلها تقمصا يدعوك إلى الإعجاب ، ويأسرك بمواقفه الفنية المحكمة .

وكل الذين اتصلوا اتصالا وثيقا « بطليمات » لايخفى عليهم أن طبيعته الأصيلة تنطوى على الطيبة والرفق والدماثة ، وأنه مُلِىء بإنسانية خيّرة يَشِعُّ منها الوفاء والنبل وكرم المعاشرة .

ويلوح لى أنه حين واجه الحياة بهذه الخصال الرفيعة صادفته ألوان من المعاكسة وسوء الجزاء ، حالت بينه وبين ما يهدف إليه

من مثل عالية تعتلج فى قلبه ، فيرغب أن يحققها بالوسائل الشريفة التى ترسمها له أخلاقه . وسرعان ما استبان له أن للنجاح وسائل لا تتفق دائما مع الرفق ولين الجانب ونبل الطبع ، فكان لذلك فى نفسه أثر ظل مكبوتا ، حتى وجد له مخرجا فيما يقوم به من الأدوار .

فهو بتمثيله الشخصيات ذوات النزعات الشريرة التى استبان له أنها الناجحة فى ميادين الحياة — يُرْضِى الجانب الذى لم يستطع تطبيقه فى حياته العملية ، فلم يجد إلا أن يستكمله تمثيلا فى حياته الخيالية . وبذلك انتقم بالفن من المجتمع الذى أساء إليه ، ومن المُثُلِ التى وقفت حائلا بينه وبين النجاح الذى كان يمنّى به نفسه فى مجتمعه !

وإذا كنا قد أعجبنا « بطليمات » فى هذه الأدوار ، فلا ننسى أنه اشترى هذا الإعجاب بثمن عظيم ، هو إباؤه أن يكون شريرا عمليا فى حياته الاجتماعية .

ونحن نحمد الله على أنه وجد على منصة المسرح ، وعلى الستارة الفضية ، مُتَنَفَّسا يحفظه لنا من الإخلال بمبادئه السامية وأخلاقه الحسان فى واقع الحياة ! . . .